حتى ترجلنا من المدرعات استعداداً للاشتباك مع العدو وأمرنا سائقي المدرعتين بأن يجعلوها في وضع العودة إلى الضبعات فيما إذا لم ننجح في كبح جماح القبائل الذين كانوا يطلقون النيران بغزارة وكثافة اذهلتنا وببنادق البشلي والجرمل ذات الإطلاق الفردي، لكن رشاشات المدرعتين حمتنا من الخلف واصلت العدو بنيرانها الكثيفة والمؤثرة مما دفعه للانسحاب من مواقعه.

كان الليل قد بدأ يسدل ستاره على قواتنا وقوات العدو فقررنا الانسحاب والعودة إلى قوات المؤخرة في الضبعات لمراجعة خطتنا وإدخال سلاح المدرعات الثقيلة لأول مرة في خطتنا لاقتحام العوائق والألغام التي وضعها القبائل في الطريق، ولتجنب السير في طريق السيارات الذي كان العدو قد زرعه بالألغام بواسطة خبراء أردنيين وأصبح من المستحيل اجتيازه بسيارة نقل أو مدرعة خفيفة، لذلك فقد عدنا إلى مؤخرة قواتنا سالمين لم نفقد أحداً بسبب النصيحة التي وجهت لنا من الأخوين عبدالله زبارة أطال الله عمره والمرحوم محمد أحمد الدقم رحمه الله.

عسكرنا في الضبعات المسماة محل آل السراجي الذي كان أحد أبنائهم في مقدمة الحملة الأولى والثانية وهو الملازم محمد السراجي وأتخذنا لنا مواقع عسكرية فوق رؤوس الجبال المطلة على محل شوبان وقرية تنعم.

بعد تدارس الموقف قرر القائد هادي عيسى القيام بالمهمة بنفسه حيث افهمنا أنه سيذهب للقيادة لإقناعهم بمدنا بالمدرعات الثقيلة "الدبابات" وسيعود خلال يومين على الأكثر، وبعد موافقتنا ذهب قائد الحملة رحمه الله ولم يعد لا بدبابات ولا أي نوع من الدعم الذي طلبناه، فقررنا انتخاب قيادة جديدة من الملازم علي عبدالله السلال قائداً والملازم علي علاية نائباً للقائد والملازم المرحوم أحمد خليل رئيساً للعمليات والملازم محمد السراجي مسؤولاً عن تموين الحملة، وإيفاد الملازم عبدالله قاسم زبارة برسالة للقائد الأعلى تطلب منه مدنا بالدبابات وبعض القوات الداعمة لأن فترة بقائنا في الضبعات كانت عبارة عن معارك مستمرة يومياً وغزو أو محاولات غزو على طريقة حرب العصابات، وإطلاق نيران على مواقعنا ومواقعهم بدون توقف خصوصاً في المساء وكان ذلك مجرد اختبار قوة طرف للطرف الآخر..

وفي هذا المقام أسجل اعترافاً بجميل أهل الضبعات الذين خدموا قواتنا وهيأوا لها كل المواد التموينية من الأكل والشرب وإرسال الرسل للتجسس على قوات العدو وإمكاناته كما كان العدو يفعل أثناء فترة عسكرتنا في الضبعات فلهم شكرنا واعترافنا بجميلهم وما قدموه لنا.

ورغم الضغط النفسي وتأثير البرد الشديد على قواتنا وامتداد فترة الانتظار للمدد، كانت قواتنا تتحلى بالروح المعنوية العالية والتطلع لساعة الإذن بالاشتباك مع العدو وإلحاق الهزيمة به والانتقام لجرحانا وشهدائنا في سريتي يافع وأبين.

أخيراً جاء الفرج بوصول الملازم عبدالله حسين زبارة ومعه المدد دبابتان ومجموعة من أفراد الحرس الوطني من أبناء ردفان وحالمين والضالع ولحج يكونان كتيبة متراصة لم تكن قد تلقت التدريب الكافي لكنهم كانوا ينشدون الأناشيد الوطنية ويهتفون بحياة الثورة وقائدها، والزعيم جمال عبدالناصر ويتوعدون العدو بالانتقام.

أرسلت لنا القيادة رسالة تواسينا في الشهداء من سريتي أبين ويافع وتطلب منا سرعة نقل الجرحى وإسعافهم إلى المستشفيات أو الخارج "مصر" لعلاجهم كما أفهمتنا أنها لم تعد تملك كثيراً من الدبابات والأسلحة الثقيلة وأن الدبابتين التي أرسلتهما مع مدرعتين 6 × 6 هما من حراسة القيادة والمشير عبدالله السلال طالبة "القيادة" حسم الموقف العسكري وسرعة التحرك لدحر العدو وهزيمته.

ازددنا قوة ومنعة بانضمام سلاح ثقيل لقواتنا ومجموعة من الحرس الوطني من أبناء المحافظات الجنوبية ومن عرين الأسد الشهيد راجح بن لبوزة "ردفان" وأبناء الضالع الشجعان ويافع المغاوير ولحج الأبطال، وقررنا التحرك فجر اليوم الثاني لمفاجأة العدو أولاً وإصابته بالذهول والدهشة ثم الهزيمة عند استخدامنا لأول سلاح ثقيل في هذه المنطقة.

وشهادة للتاريخ أسأل عنها أن أبناء المحافظات الجنوبية ممن تبقى من سريتي يافع وسرية حالمين وردفان والضالع ولحج كانوا يجرون خلف الدبابة كالأسود الكاسرة غير مبالين بنيران العدو الكثيفة رغم أنهم كانوا مكشوفين، واشهد أن الرائد محمد أحمد الدقم، رحمه الله، كان مندفعاً كالأسد الجسور رغم حمله رتبة عالية واقترحنا عليه أن ينضم إلى القيادة في الدبابة الأولى خوفاً عليه من الإصابة، مع بطل جسور آخر هو الملازم محسن وهاس وبدأت المعركة غير المتكافئة فقد كان العدو يعتقد أن الدبابة مثلها مثل المصفحة يمكن إصابتها وتفجير إطاراتها والاستيلاء عليها، وتركنا العدو يصب نيران غضبه على الدباباتين اللتين أمطرتا بوابل غزير من الرصاص بينما كانت الدبابة الأولى قد بدأت بضرب قرية شوبان ومنازلها، وكانت أول إصابة قاتلة هي إسقاط بيت الشيخ محمد الغفاري المكون من أربعة طوابق وهو شيخ شوبان ثم التصويب من قبل الدبابة الثانية على بقية المنازل .. كانت معركة طاحنة وشرسة وغير متكافئة ومفاجئة لم يكن أهالي قرية شوبان يتوقعونها، لذلك فقد أسرعوا بالفرار والنجاة بأنفسهم وترك القرية بنسائها وصبيانها وممتلكاتهم الكثيرة، وتركوها لدخول القوات الجمهورية التي تسابق أفراد قواتنا من الحرس الوطني والنظام والقبائل لاحتلالها بتطهيرها ونهبها.

كان منظر القتلى من سريتي يافع وأبين مؤثراً للغاية لمن ساهم في الصلاة عليهم ودفنهم بدمعة حارة، وكان الجرحى في حالة يرثى وأقصى القلوب لولا أهالي قرية تنعم وما قدموه لهم من طعام وشراب حتى أن بعض الجرحى كانت الدود تأكل من أجسادهم دون أن يتمكنوا من مقاومتها لأن الجرح غائر وعميق ومعيق لصاحبه عن الحركة أو لأن الفترة التي قضوها ينزفون حالت دون تحملهم لآلام الجراح ومعاناته القاسية.

استبد بي الغضب عند رؤيتي حالة القتلى والجرحى وقررت كقائد للحملة نسف القرية ومنازلها كاملة دون رحمة باستثناء الأطفال والنساء الأبرياء من هذه الجريمة البشعة التي ارتكبت في حق مقاتلينا من الحرس والشهداء وأيدني في ذلك كل القادة الميدانين، وبدأنا في وضع الألغام في كل بيت في القرية وفجرنا كل المنازل دون استثناء، حتى تصبح هذه القرية مجرد ذكرى وعظة لمن تحدثه نفسه الاعتداء على جندي من جنود الثورة، ومازلت أتذكر كيف كان رد الفعل في نفوس الأطفال والنساء الأبرياء فقد انخرطوا في البكاء لأنهم لم يرتكبوا ذنباً أو يشاركوا في قتل وإصابة جرحانا بجراح بليغة ومنع الماء عنهم والأكل وتضميد الجراح وهو ما يفعله العدو والفارس النبيل بصرف النظر عمن يمثل هؤلاء القتلى والجرحى.

ورغم حزني الشديد عل مصير القتلى وحالة الجرحى إلا أنني تمالكت نفسي فأمرت بسرعة إسعاف الجرحى ودفن الموتى في موكب جنائزي مهيب ثم أمرت بالتحرك نحو قرية تنعم الهدف الرئيسي من خطتنا وتركت قرية شوبان نهباً من قبل قواتنا بعد أن أمرت بتخصيص سيارتين لنقل الأطفال والنساء وتسليمهم لشيخ الضبعات الأخ السراجي مع مبلغ من المال للصرف عليهم حتى يأتي أهالي المحل لأخذهم عملاً بالحكمة القائلة (إن الأطفال والنساء لايجب أن يؤاخذوا بذنب آبائهم).

وهكذا كانت أخلاقنا ومبادئنا رغم سوء أخلاق العدو وشراسته في معاملة قتلانا وجرحانا، ورغم الألم الشديد الذي كنت أشعر به بعد أن دمعت عيناي من مناظر القتلى والجرحى فإنني أعطيت أمراً لمواصلة الحملة والسير نحو بلوغ تنعم بعد أن تأكد لي أن أهاليها موالون للنظام الجمهوري ومتمسكون بالثورة ومبادئها، فكان لهم الفضل في تهريب العديد ممن وقعوا في كمين أهالي شوبان كما شاركوا في إسعاف الجرحى وتقديم الطعام والشراب الضروريين لاستمرارهم على قيد الحياة .. وكان أول عمل قمنا به هو تقديم الشكر لأهالي تنعم وتكوين سرية من أولادهم للمشاركة معنا في حماية مخازن الذخيرة والتموين العسكري والأسلحة التي كانت معنا، ثم اخترنا موقع القيادة، وهو عبارة عن منزل لأحد أهالي تنعم تنازل لنا عنه طواعية فأستأجرناه ورفضنا هبته لأن الأهالي كانوا قد بلغوا حداً من المتاعب بسبب إصرارهم على موالاة الثورة والنظام الجمهوري، رغم الحصار الشديد الذي ضربه عليهم أصحابهم فأردنا التخفيف عنهم وأشركناهم في الحصول على تموين يومي لكل فرد منهم، وكان عبارة عن أربع كدم وعلبتي تونة لاتسد الرمق، وهو ما كان يحصل عليه كل ضابط وجندي نظامي وحرس وطني ومتطوعون رجال القبائل ومشائخهم.

منظر الشهداء من سريتي يافع وأبين كان مؤثراً للغاية .. وشاهدت الجرحى تأكل الدود من جراحاتهم الغائرة!

المقاتلون من أبناء الجنوب أصروا على حمل أسلحتهم معهم إلى مناطقهم ما جعلني في ورطة لأنها كانت عهدة علي